عنوان المحاضرة : الثقافة

تكملة :

لقد اقترب "**ابن خلدون"** من معنى الثقافة عندما تحدَث عن العمران، في مقدمته: «أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع؛ أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران»، ولقد غدا الاهتمام بمسألة الثقافة يتعاظم فظهرت العديد من الدراسات حول الموضوع، فالجابري يقول: «أنها ذلك المركب المتجانس من الذكريات، التصورات، القيم، الرموز، التعبيرات، الإبداعات والتطلعات التي تحفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والعطاء وبعبارة أخرى أن الثقافة هي المُعبِّر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون، الحياة، الموت، الإنسان، مهامه، قدراته، حدوده، وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل».

ويرى "محمود أمين" في الثقافة: بأنها « رؤية شاملة للعالم بمستوى أو آخر، تتجلى أو تتجسد فرديا ومجتمعيا في المفاهيم، القيّم، ظواهر السلوك، الممارسات المعنوية، العملية الحياتية المختلفة، توحِدُها اللغة في المجتمع الواحد، وإن تنوعت بتنوع فئات هذا المجتمع من حيث مواقعها الاجتماعية ومواقعها الفكرية، بما يُشكِّل الخصوصية الثقافية والقومية العامة لهذا المجتمع».

فينظر إليها "علي حرب" أي الثقافة على أنها: «صناعة الحياة والاشتغال على الطبيعة، وشكل من أشكال التواصل والتبادل، بهذا المعنى لا إنسان بلا ثقافة، سواء أكان من أهل العمل الفكري أم من أصحاب العمل اليدوي، لأنه لا إنسان أصلا بلا فكر»، ويضيف "حرب" في موضع آخر بأنها: «عالم من الرؤى، النماذج، القيم، المواقف، أو من المفاهيم والمعايير، هذا العالم من المعاني والدلالات والعلاقات ليس متجانسا؛ بل هو منسوج من الفرق والاختلاف، قائم على الوصل والفصل، ولا يخلو من التعدد والتعارض؛ إنها تركيبة يُعاد تشكيلها على سبيل التطعيم والتهجين».

هذه أهم التعريفات لمصطلح الثقافة، ونرى بأن مجمل التعاريف تصب في تعريف "تايلور"، فهي تشمل اللغة، العادات والتقاليد...فهي ذات طبيعة اجتماعية، لأنها تتكون نتيجة تجمع الأفراد، خاصة بالأفراد كأعضاء في جماعة وليس أفراد متفرقين، وهذا ما عرضه "براون" "BROWN" أن الثقافة «هي العملية التي تنتقل بها اللغة والمعتقدات والأفكار والمعرفة والمهارات من مجموعة أو طبقة اجتماعية معينة، ومن شخص لشخص أو من جيل إلى أخر».

فهي عبارة عن مزيج من المعرفة، العقائد، الفنون، الأخلاقيات والقانون، العادات، القيم والتقاليد...كما تُعد سلوكا مكتسَبا؛ أي أن الفرد لا يَرثها وإنما يتعلمها عن طريق التعايش مع مجتمع معين؛ فالطفل مثلا ينمو في مجتمع له ثقافته الخاصة وتتكون الثقافة لديه من خلال ما يتعلمه، وما يمر به من خبرات ومعارف وتجارب في حياته ومن خلال عمليات الاتصال بالمجموعات التي ينتمي إليها؛ فالثقافة تنتقل من جيل إلى جيل من طرف المجتمع وأفراده؛ إن معتقدات الفرد وقيّمه وعاداته وغيرها من مكونات الثقافة تؤثر على الطريقة التي يستجيب بها الفرد لمواقف معينة في حياته اليومية.

قبل التطرق لأنواع الثقافة بِوِدي أن أعرج قليلا على الثقافة الأصيلة والأصلية للثقافة العريقة ألا وهي الثقافة العربية الإسلامية التي تطغى على كل الثقافات مهما كانت أنواعها.

والتي يعرّفها "عبد السلام المسدني" بأنها مناط الشخصية العربية ومستودع قيّمها ووعاء حكمتها وحقيقة هويتها الحضارية، أنها ثقافة إنسانية أصلية شاملة لمظاهر المادة والروح ذات عراقة تاريخية تتميز بقيم فكرية عالية وقيّم الحق والعدل والمساواة واحترام المعرفة، ثقافة تُمثل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان، تنفرد بجهاز لغوي ليس له مثيل في السِعة والمرونة، وأهم شيء في مفهوم الثقافة في الحضارة العربية الإسلامية هو التلازم بين كل ما هو ثقافي وقيمي؛ فضلا عن الارتقاء بالإنسان إلى أقصى الدرجات ذلك أن موضوع الثقافة في أصله وجوهره هو لماذا نحيا؟ أي السؤال عن معنى الحياة عكس الحضارة والتي يغلب عليها الطابع المادي والتي تتمحور حول سؤال كيف نحيا ؟ وبالتالي فهو سؤال عن كيفية الحياة.

ومن أهم أنواع الثقافة نذكر:

**1.2.الثقافة النخبوية:** هي الثقافة التي تحصلت عليها نخبة من المجتمع بواسطة عِدة وسائل منها الكتاب وهي ثقافة مكتوبة لا يتحصل عليها إلا من يعرف القراءة والكتابة، وهي تعبّر عن مواقف المجتمع عندما تكون نابعة منه، وهي التي يُطلق عليها "محمد عابد الجابري" اسم "الثقافة العالمية" والتي تضم حسبه طريقة الحياة المادية والروحية لكي تمنح لكل أمة خصوصيتها، وهي معدن الهوية؛ حيث تمتد من طريقة الملبس والمأكل والضحك إلى مكونات الذاكرة الجماعية والخيال الاجتماعي والرأسمال الرمزي.

فهي تُستَعمَل لتشير إلى المعطيات ذات الخصوصية المتميزة بدرجة عالية في الرقي؛ فهي تعتبر من جانب الوسط الثقافي أعلى درجة الإبداع الإنساني؛ فالأعمال الفنية ذات الحضور المستمر تُعد مثالا عن الثقافة العالية، وتتضمن أعمالا مثل: الأوبرا والسمفونيات الكلاسيكية لـ"بيتهوفن" و"موزار" واللوحات الفنية مثل "ليوناردو دافنشي" وكذلك أعمال "شكسبير" و"جون ملتين"، والعديد ممن يستعمل مصطلح الثقافة العالية، التي ينظر إليها كشكل أرقى من أشكال الثقافة الأخرى.

من أبرز صفات الثقافة النخبوية أنها تنحصر في طبقة دون باقي الطبقات المجتمعية، طبقة تعيش رخاء ورقي اجتماعي؛ لدرجة أنها لا تهتم بكل ما تهتم به الطبقات الأخرى والتي هي دون المستوى الاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي، فهُم في مكانة تسمح لهم بالاستمتاع بكل مترَفات الحياة؛ في حين الذين لا يملكون وقت لهذا الرُقي والبذَخ المادي، يكونون في مراحل التفكير كيف يحسّنون مستواهم المادي، ومع ذلك يملكون ثقافة تميز مستواهم ومكانتهم بين باقي الثقافات وهي تسمى بالثقافة الشعبية.

**2.2.الثقافة الشعبية:** إن إثارة مسألة ثقافة المجموعات المهيمَن عليها تؤدي –لا محالة– إلى إثارة الجدال حول مفهوم "الثقافة الشعبية"؛ ففي فرنسا تدَخلت العلوم الاجتماعية، متأخرة نسبيا في هذا النقاش الذي كان في البداية؛ أي في بداية القرن الـ 19 من فعل المحللين الأدبيين خاصة إذا كان منحصرا في تفحص الأدب المسمى "شعبيا " وخاصة منه أدب البيع الجوال [[1]](#footnote-2)\*colportage، لاحقا وسّع دارسو الفلكلور المنظور بأن اهتموا بالتقاليد الفلاحية، ولم يقارب علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع حقل الدراسة هذا إلا منذ أمد أقرب.

هي عكس الأولى وهي الثقافة الشفوية التي ينقلها المجتمع من جيل لآخر شفويا كالشعر الملحون والحكايات والعادات والتقاليد، وفي الغرب تسمى الفلكلور من غناء ورقص، وهذا الفلكلور الذي يعبّر عن تفاعل مباشر بين الناس بشكل متناغم تتبوأ فيه الكلمة الشفهية المكانة الأولى، أما أحدث تعريف للفلكلور فقد أصدره مؤتمر الفلكلور الذي عقد في أرنهيم "Arnheim" سنة 1955 في توصياته؛ حيث يُعرّف الفلكلور بالنظر إلى مادته على أنه : «هو المأثورات الروحية الشعبية وبصفة خاصة التراث الشفوي» "oral tradition" وهو أيضا العِلم الذي يدرس هذه المأثورات، ويتألف اصطلاح فولكلور "folk-lore" من مقطعين " folk" بمعنى الناس وهي الكلمة الانجليزية القديمة "folc" و"lore" بمعنى معرفة أو حكمة؛ فالفلكلور حرفيا هو معارف الناس أو حكمة الشعب.

ففي بعض الكتب والمراجع يُنظَر لها على أنها ثقافة الناس العاديين وخاصة أولئك الذين يعيشون في مجتمعات ما قبل الصناعة، فثقافة العامة تتكون ذاتيا وهي متجانسة وتعكس مباشرة حياة وتجارب الأفراد؛ حيث تبرز كما تبرز الأعشاب من الجذور، وكمثال على الثقافة العامة: الأغاني التقليدية والقصص المتنقلة من جيل لجيل، ويُنظَر لها باعتبارها أقل قيمة من الثقافة العالية مع أنها تعتبر مهمة في بعض المجالات، وتوصَف كونها   
لا تطمح أبدا لتكون فنًا رغم أنها تُحترم وتُقبَل كثقافة أصيلة وليست مفتعلة**.**

يرى "غرامشي" أن الثقافة الشعبية لا تقل أهمية عن باقي أنواع الثقافة الجماهيرية، فهي تكمن في حل مشكلة التغيير والتنمية، ويؤكد على عدم النظر للفلكلور على أنه مجرد رقصات، وغناء وكلمات شعبية تعبّر عن آراء ومعتقدات الطبقات المجتمعية الشعبية؛ بل أنه صورة أخرى للحياة بطريقة جادة وهو انعكاس للأفراد وطريقة معيشتهم.

لكن بتدخل وتطور الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيرية أثّر على طبيعة هذا النوع مخلفا ما يسمى بـ"جمهرة الثقافة"؛ هذه الأخيرة التي تعبّر عن طبقة لها إيديولوجية معينة، محاولةً فرضها ليس على طبقة واحدة؛ وإنما على كل الطبقات المجتمعية لتخلق نمطا واحدا عالميا.

**3.2. الثقافة الجماهيرية:** الثقافة الجماهيرية أو جمهرة الثقافة عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية، وما تحاول كسبه على حساب المادة الإعلامية التي تقدمها هذه التقنيات الحديثة، فهي تسعى إلى كسب عدد كبير جدا من الجماهير وبالمقابل التأثير عليهم ببثها مسلسلات، إشهارات، أغاني ...معتمدة على الجانب المعياري الاستهلاكي القوي كقاعدة لتنفيذ أفكارها.

إذن هذا النوع من الثقافة يختلف تماما عن النوعيين السابقين، فإذا كان الإنسان هو العامل المحرك في الثقافة النخبوية وخاصة الشعبية؛ ففي الثقافة الجماهيرية تعتمد على التقانة كعامل أساسي إلى جانب الفرد في توسيع أفكارها ومنتقياتها الاستهلاكية**.**

فهي إذن مفهوم جديد يختلف عن النوعين السابقين وهي مرتبطة بوسائل الاتصال وتنتقل بواسطتها، وهي تؤثر على أفراد المجتمع بالتكرار وطول الزمن، وبذلك فهي غالبا ما تصطدم بالنوعين السابقين.

وفي ذات السياق كَتَب "إدغار موران": "عندما بدأت التفكير حول مصطلح الثقافة الجماهيرية، ظهر لي شيئان: الحداثة التي جلبتها للثقافة المشتركة، والتي يُطلق عليها تزامن الثقافة الجماهيرية؛ ومما يعني: القدرة على احتواء مختلف المستويات الثقافية، ومختلف الأشياء ذات الأصول المختلفة، ومن جهة أخرى مختلف العلاقات الداخلية التي تربطها الثقافة الجماهيرية مع الخبرة الشخصية، ما تجلبه الثقافة الجماهيرية هو الامتداد المعتبر للخبرة الشخصية، وبالأخص بُعد مختلف للإشارة".

1. \* **البيع الجوال** أو **Colportage:** هو مجموع الآثار الأدبية الشعبية التي كان يروّجها الباعة الجوالون طول الفترة الممتدة من القرن 16 الى القرن 19 ( **نقلا عن: دنيس كوش، ترجمة منير السعيداني، ص 122).**  [↑](#footnote-ref-2)